بلاغة الغدير

بين عنوان النص وفاتحة السورة

مدخل تحليلي قرآني

د.عباس أمير

كلية التربية/ جامعة القادسية

أولا: بلاغة الغدير... عنوان النص/ الظاهرة الأولى ومبتدأ الفهم:

يقول صاحب اللسان؛ ((إنما جُعل الاسم تنويها بالدلالة على المعنى، لأن المعنى تحت الاسم))[1] .

ولأن ((المعنى تحت الاسم))، وأن الاسم تنويه بالدلالة على المعنى، نجد أن الآصل والأولى أن نشرع في تحقيق معرفة علمية بمعنى الغدير من حيث هو واقعة قرآنية، من عند الفضاء القرآني الذي اشتمل على حيثيات تلك الواقعة، أي من حيث المدخل الدلالي للسورة التي ورد بيان أمر الغدير فيها، متخذين من اسم السورة مفتاحا تحليليا لتبيّن ما يمكن تبينه من قرآنية واقعة الغدير... وإذا عددنا اسم النص عنوانا له خلصنا، إلى أن العنوان، كما يقول السيوطي، يجمع مقاصد النص بعبارة وجيزة في أوّله[2] ، بل هو أول كمال معرفة المسمى، كما يقول أحد أهم أعلام التصوف الإسلامي، ((أول كمال يُـعَـرِّف به المسمى نفسَه إلى من يجهله، بالاسم)).[3] و بدلالة هذا الكمال الأول، وبربطه بما سبق من حديث في الطبيعة المعرفية للاسم وعلاقته بالمسمّى نخلص إلى أن الاسم ظاهرة أولى، والظاهرة الأولى؛ ((ليست مما يُفَسّر بأمر آخر، ليست أمرا يُشَقّ من أمر آخر. إنها معطى ابتدائي، إنها مبدأ تفسير، إنها ما يُفسّر كثيرا من الأمور الأخرى))[4] .

.....

(١) ظ؛ لسان العرب، ابن منظور؛ مادة ؛ (سما).

(٢) ظ؛ الإتقان في علوم القرآن؛ مج٢/ص٢٨٥.

(٣) الإنسان الكامل، عبد الكريم الجيلي؛ ص٣١.

(٤) مشاهد روحية وفلسفية، هنري كوربان؛ ص٣٨.

ولهذا كلّه ذهب أصحاب الدراسات النصية المعاصرة إلى أن الاسم/ العنوان مفتاح العلاقات في النص وموجّه الفهم، والعنصر الأهم وسما للنص، وذلك دليل على أهميته في التعريف بالنص[1].

وفي ضوء ما سبق ، نخلص إلى أن ثمة هاهنا باعثا معرفيا مهما يحمل البحث على تنظيم رؤيته العلمية لموضوعه بما ينسجم مع ما يشترطه بيان النص الكريم من جهة، وما يلوّح به معناه القرآني من جهة أخرى. فلنسارع إذن إلى إجراء تلك الحقائق المعرفية ومحدداتها ضمن ما تستلزمه الجَنبَة القرآنية لواقعة الغدير.

جاء في اللغة؛ المائدة، خِوانٌ عليه طعام. فإذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وإنَّما هو خِوان. والمائِدةُ الطعام نَفْسُه وإن لم يكن هناك خِوانٌ... وقيل إن المائدةَ من العطاء والمِمْتادُ المطلوب منه العطاء، المِسْتَعْطَى المسؤولُ، ومنه المائدة وهي خوان عليه طعام. ومادَ زيد عَمراً إذا أَعطاه، والأَصل في مائدة أَنها فاعلة من مادَ يَمِيدُ إذا تحرّك فكأَنها تَمِيدُ بما عليها أَي تتحرك وسميت المائدة لأَنها مِيدَ بها صاحِبُها أَي أُعْطِيها وتُفُضِّل عليه بها والعرب تقول مادَني فلان يَمِيدُني إذا أَحسن إِليّ وإنما سميت المائدةُ مائدة لأَنه يزاد عليها. والمائدةُ الدائرةُ من الأَرض، ومادَ الشيءُ يَمِيدُ مَيْداً تحرّك ومال[2].

(المائدة) هذه، بما لها من اشتقاقات صرفية ودلالات معجمية استعمالية تشكّل مما تشكّل تاريخ الكلمة وهويتها الوجودية والاجتماعية، هي التي توسّمت أول آخر سورة نـــــزلت من

.....

(١)ظ: نحو النص– نقد نظرية وبناء أخرى، د. محمد عمر أبو خرمة، ص٩٣.

(٢) ظ: لسان العرب، مادة؛ (ميد).

القرآن الكريم، مستمدة مشروعيتها، اسما للسورة، من ورودها في ضمن المقطع الآتي من السورة نفسها؛ ((**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**))(**المائدة؛ ١١٣– ١١٤**).

والذي يبدو لنا، بلحاظ الدلالتين؛ الاستعمالية– الاجتماعية، والقرآنية لكلمة (المائدة)، ما يأتي؛

١– على وفق ما جاء في الدلالة الاجتماعية يبدو أن (الخوان)، وهو ما وُضِع عليه الطَّعام ليُؤْكَل، أو الطَّبَق الذي يُؤْكَلَ عليه، لا يجوز عليه أن يسمى مائدة إلا إذا كان عليه الطعام، فالمائدة؛ الخوان، شرط أن يكون عليه الطعام. وبلحاظ الدلالة القرآنية، يبدو أن مائدة بني إسرائيل هي طلبة بني إسرائيل واقتراحهم على نبيهم، بعد إيمانهم به، وأن مغيّا هذه الطلبة هو استكمال الطمأنينة القلبية بنبوته من خلال معاينة الآية مشاهدةً فيتحقق العلم الذي لا يشوبه شك[1]. فطمأنينة بني إسرائيل ويقينهم العيني، هو إيمانهم المشروط بنزول المائدة وإلا فلا يقين عينيا ولا طمأنينة قلبية، وإن كان ثمة الإيمان قبل نزول المائدة فهو الإيمان المشوب بالشك.

وفي الحالين معا، ثمة مقابلة بين طرفين، يشكل فيهما الطرف الثاني تتميما للأول وزيادة عليه ليس للأول منهما أن يستوي دونه، و لا يمكن له أن يمتد في عوالم الكمالات وهو مفتقر إليه، وكأن الثاني مقصد الأول الذي به

.....

(١) ظ؛ التفسير الكبير، الفخر الرازي؛ ج٤/ ص٤٦٢– ٤٦٣.

تتحقق غايته.

٢- وبعقد الصلة بين تسمية المائدة في الدلالة الاجتماعية للمفردة، وأنها مِيْدَ بها صاحِبُها أَي أُعْطِيها وتُفُضِّل عليه بها، بعقدها بالاستعمال القرآني للكلمة القاضي بأن مائدة بني إسرائيل عطية الرب إليهم ورزقه هو دون غيره فهو خير من يرزق، وهو خالق الرزق ومعطيه بلا عوض، فهي نعمته عليهم منّ بها عليهم تفضلا منه وليس استحقاقا منهم، يتضح أن المائدة صنيعة الممتاد المعطي، وهي من بعد ذلك مما لا يمكن لغيره أن يعطيه على جهة الإحسان والتفضّل... والنتيجة ثمة هاهنا طرفان، طرف المستعطي وطرف المعطي، وبلحاظ هذين الطرفين ضمن ما تبين عنه مائدة بني إسرائيل يتضح أن الطرف الأول هو عموم الإيمان الذي استكملت أركانه دون روحه الممتدة في الوجدان من جهة، وفي المكان والزمان والذاكرة من جهة أخرى، أما الطرف الثاني فهو خصوص الإيمان وتمامه الروحي والحيوي.

٣- والمِيْدُ؛ فلسفيا وفيزيائيا، هو الحركة، والذي يسبق الحركة،منطقيا، سكون، ومقصد السكون حركة، وما بين الحركة والسكون علاقة جدلية مدارها التكامل، فالمِيْد مزاولة الممتاد تحريك الساكن، وإلزام السكون تحقيق الحركةَ.

فضلا عما سبق، وبلحاظ ما ورد في النقطتين السابقتين، يبدو أن ثمة طرفين هاهنا، طرف السكون وطرف الحركة. وأن ما بين الحركة والسكون عقدة معرفية، بوجودها يوجد كل شيء بدءا بالصغير الرياضي والفيزيائي والكيميائي والأحيائي وانتهاء بالكبير من أشياء هذا الكون الفسيح.

والآن، لنتذكّر أن آية التبليغ التي نصّها؛ ((**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**))(المائدة؛ ٦٧) قد وردت ضمن سورة، تلك فضاءاتها المعرفية التي لوّحت بها وومضت، وأشارت إليها وأومأت تسمية السورة ابتداء وأولا. وهذا ما يدعونا إلى قراءة تدبرية استنطاقية أخرى لآية التبليغ بكل ما تزخر به من مكنونات عقائدية قرآنية، وما يحفّ بها من حقائق تاريخية... ولكن أولا وبديّا، لنعطف بوجهتنا المعرفية قليلا إلى حيث ما يؤكده الجغرافيون والمعجميون والمؤرخون، ولنا في هذه الوجهة مقاصد ستتبيّن بعيد قليل...

ذهب غير واحد من أصحاب المعاجم والمؤرخين والجغرافيين إلى أن غدير خم يقع بين الحرمين مكة والمدينة بالجَحَفة، والجحفة وادي يبدأ بالغدير وينتهي عند البحر الأحمر.(١) وورد عن نبيّ الرحمة صلى الله عليه وآله، قوله: دحيت الأرض من مكة، وكانت الملائكة تطوف بالبيت... وعن ابن عباس قال: فدحا الله الأرض من تحتها[مكة]، فمادت ثم مادت فأوتدها الله بالجبال(٢) .

وبإجراء نوع معاقدة معرفية بسيطة بين الحقيقتين السابقتين، التأريخية والنبوية، يتضح لنا، أن (الميد) الذي تشير إليه الحقيقة النبوية وهي تكشف عن جانب من جوانب أولية الخلق، هو الآخر حركة بعد سكون، وأن الحركة حركة اهتزازية مَيْليّة فيزيائيا، رافقت دحو الأرض من تحت مكة... وليس ببعيد عن هذه الجغرافيا الكونية، بل في ضمن امتداداتها التـــــاريخية

.....

(١) ظ؛ موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، محمد الرّيشهري؛ مج٢/ ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) بحار الأنوار؛ ج٥٤/ ص٢٠٦-٢٠٧، وظ: مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي؛ ج١/ ص،١٧٦، والتفسير الكبير، الرازي؛ ج١/ ٣٨٨ ، وتفسير القرطبي، ج١/ ص ٢٢٦ .

وعمرها الجيولوجي نزلت آية التبليغ، كما يؤكد ذلك أهل التفسير ورجال المعاجم وأصحاب الجغرافيا والتاريخ، فجرت واقعة الغدير تبيانا لحقبة جديدة من حقب التاريخ، وترسيما لمعالم كونيـة أخرى لحركة الإيمان في الأرض، تلك الحركة التي سكنت قبل البـعثة المحمدية ثم مـادت على يد الرسول الأكرم وتحركت ضمن قوانينها العامة خلال الحقبة النبوية، واستلزمت حركتها الأخرى الخاصة خلال الحقبة الولائية، فهي ما بين حقبة عـمـوم الإيمان

التي تولاها الرسول الأكرم صلى الله عليـه وآله وبين الحقبة التي استلزم فيها، بعد كمال عمومه، تمام خصوصه وامتداده الذي يتجاوز بحركته العامة مرتبة الشروع الأول، سعيا إلى خصوص الحركة ودوامها ، وذلك على يد الولي سلام الله عليه...

ترى ماذا يعني ما سبق؟ وكيف نقرأ ما سبق قراءة ميْدِية أخرى، وخاصة تنتقل بنا من مجرد عموم المعرفة إلى خصوصها... ولْنُثِرْ التساؤل المشروع الآتي؛ هل ما جرى، جرى صدفة واعتباطا وعبثا؟ ولماذا نزلت الآية المباركة، آية الغدير بعد أن أتمّ الرسول الأكرم مناسك حجة الوداع وليس قبل ذلك، ولماذا في هذا المكان بالذات؟

لا نعدِم طمأنينة قلبية أو عقلية إذ نقول؛ ليس ثمة صدفة في الفعل الإلهي، وإنما كل شيء بحكمة وبقدر؛ ((**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**))(القمر؛ ٤٩)، ((**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**))(ص؛ ٢٧)، ((**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ**))(آل عمران؛١٩٢)... وهذا يعني أن آية التبليغ بمضامينها القرآنية الناصّة على لزوم ديمومة حركة الإيمان المنضبط من خلال إعلان الولاية للولي حق ، وأن حقائقها التاريخية حق، وأن تقديرها في الزمان بعد الفراغ من حجة الوداع حق، وكذلك تقديرها في المكان ونزولها في غدير خم الواقع ضمن الرقعة الجغرافية لمكة حق، بكل ما تختزنه هذه الرقعة من الأرض من حقائق الدحو والميد...

الحدث، إذا، حدث كوني له علائقه السرية وترابطاته العميقة بالمكان والزمان، فهو أبعد من أن يكون حادثة عابرة، لذا يستلزم قراءة أبعد من أن تكون قراءة عابرة أو أحادية تركّز على البعد التاريخي للحادثة دون بقية الأبعاد... ولكي تمتلك هـذه القناعة وتـلك القـراءة

صدقيتها العلمية، هذه دعوة ماسّة وحثيثة للباحثين في علوم الجيولوجيا والزلازل ولأهل الفيزياء وغيرهم ممن يعنيهم هذا الأمر كثيرا لكي يتثبتوا عمليا، وبواسطة البحوث العلمية وبمساعدة الأجهزة، من النتائج التي خلص إليها هذا البحث النظري، أقصد بها بعبارة أكثر وضوحا، إننا نذهب إلى أن الموقع الجغرافي لغدير خم، بلحاظ محدداته القرآنية التي بانت لنا في ما سبق، وبلحاظ صورته التاريخية المتكاملة الأبعاد التي حفظها لنا التاريخ، موقع حراك زلزالي زاخر بالحـــركـة الميدية التي ستؤكدها، إن شاء الله، جيولوجيا الموقع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو لنا أن الخسف الذي تشير إليه علامات الظهور وقيام الساعة آخر الزمان، على لسان الرسول الأكرم، سيكون مداره ضمن هذا الموقع...

إنها لفتة إعجازية خلص إليها هذا البحث للمرة الأولى في تاريخ الإعجاز القرآني، وهي طريقة جديدة في النظر إلى مفهوم الولاية بعامة، وولاية الإمام علي عليه السلام بخاصة...!

وهي، بناء عليه، باعثة ومحفزة المعنيين بالعلوم الفيزيائية والجيولوجية على متابعتها والتحقق من صدقيتها المفترضة ضمن هذا البحث النظري المتواضع

ثانيا: آية التبليغ : مفتتح السورة؛ أداةً تحليليةً:

الآن، وقد أذنت لنا أعراف البحث وضوابطه العلمية بالنظر إلى موضوع درسنا نظرة أخرى، نقول مرة أخرى؛ ما يعني ما سبق من تثوير للدلالة القرآنية لتسمية سورة المائدة ومعناها القرآني بالنسبة إلى آية التبليغ؟

لكن، وقبل الإجابة عن سؤالنا ذاك، علينا أن نستحضر قولة مهمة لأصحاب الدراسات النصيّة المعاصرة، تتعـلق بسياسة النص وإمكاناته التأويلية المفترضة ومكـنـوناته المعـنوية، التي

لا بد لمن يسعى إلى تأملها والإمساك ببعضها أن يضع في اعتباره الجملة الأولى في النص، ((ذلك أن كل جملة تُفهم بناء على معطيات الجملة التي قبلها))، فحركة النص؛ ((حركة تراكمية خطيّة؛ لذا كانت الجملة الأولى، هي الأوفر حظا في التأثير))[1]، وهذا، أو قريب منه، ما بحثه القدماء من دارسي القرآن تحت عنوان؛ (فواتح السُّوَر)[2].

الذي تقضي به منهجية العود إلى الجملة الأولى التي تشكّل فاتحة السورة المباركة، هو التوقف قليلا عندها، بغية إعادة قراءتها بما ينسجم مع مقتضيات تسمية السورة، وبما يعمل على أن يكون أداة تحليلية أخرى نتقصى بوساطتها ما يمكن تقصيه مما تنعقد عليه آية التبليغ من حقائق ولائية.

تقول الآية المباركة؛ ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**))(المائدة؛ ١). والذي يتضح من خلال مطلع الآية أن السورة المباركة، سورة المائدة، وهي السورة الأخيرة نزولا على الرسول الأكرم تتوجه إلى المؤمنين بلزوم الوفاء بالعقود، مع غض النظر عن طبيعة تلك العقود وماهياتها. ولكن سورة الأنعام المتقدمة على المائدة من حيث تاريخ النزول، التالية لها ضمن ترتيب المصحف، تقول؛ ((**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**))(الأنعام؛ ١٥٢)، وثمة ما يميز ماجاء في الأنعام مما جاء في المائدة من حيث تخصيص العهد بأنه عهد بين العبد والرب في الأنعام، وعدم تقييده في المائدة، ومن جهة أخرى تتوجه سورة الأنعام إلى المؤمنين بلزوم الوفاء بالعهد، مثلها مثل ما ورد في سورة الإسراء؛ ((**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**))(الإسراء؛ ٣٤)، على حين تتوجه المائدة إليهم بالوفاء بالعقود... والذي

.....

(١) نحو النص؛ ص٩٣.

(٢) ظ: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج١/ ص٢١٣ وما بعدها، والإتقان، السيوطي؛ ج٣/ ص٢٨٢-٢٨٥. والمعنى القرآني بين التفسير والتأويل- دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني، عباس أمير؛ ص١٩٧.

يتبادر إلى الذهن الآن من الأسئلة، هو؛ ما الفرق بين العهد والعقد، أو هما واحد فلا فرق بينهما؟

جاء في اللغة، قولهم؛ عقدت الحبل فهو معقود وكذلك العهد، ومنه عُقْدَةُ النكاح... وانعقَدَ عَقْدُ الحبل انعقاداً وموضع العقد من الحبل مَعْقِدٌ... عَقَدَ العَهْدَ واليمين يَعْقِدهما عَقْداً وعَقَّدهما أَكدهما... وعقدَ العسلُ والرُّبُّ ونحوُهما يَعْقِدُ وانعَقَدَ وأَعْقَدْتُه فهو مُعْقَدٌ وعَقِيد غَلُظَ... وعُقْدَةُ كلِّ شيءٍ إبرامه[1].

وفي مفردات الأصفهاني؛ ((العقد: الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع، والعهد وغيرهما))[2]. أما العهد عنده فهو؛ ((حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسُمّي الموثِق الذي يلزم مراعاته عهدا... وباعتبار الحفظ، قيل للوثيقة بين المتعاقدَينِ: عُهدَة))[3]. والعقود،كما يقول الطباطبائي؛ ((العقود جمع عقد و هو شد أحد شيئين بالآخر نوع شد يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر، كعقد الحبل و الخيط بآخر من مثله، و لازمه التزام أحدهما الآخر، و عدم انفكاكه عنه، و قد كان معتبرا عندهم في الأمور المحسوسة أولا ثم استعير فعمم للأمور المعنوية كعقود المعاملات الدائرة بينهم من بيع أو إجارة أو غير ذلك، و كجميع العهود و المواثيق فأطلقت عليها الكلمة لثبوت أثر المعنى الذي عرفت أنه اللزوم والالتزام فيها)) [4]. وعلى وفق الرازي، العقد؛ ((هو وصل السيء بالسيء على سبيل الاستيثاق والإحكام، والعهد إلزام، والعقد التزام على سبيل الإحكام)) [5].

.....

(١) ظ: لسان العرب، مادة (عقد).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني؛ ص٥٧٦.

(٣) م. ن؛ ص٥٩١-٥٩٢.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي؛ ج٥/ ص١٦٧.

(٥) التفسير الكبير؛ ج٤/ ص٢٧٦.

ثمة فارق بين العهد والعقد، إذاً، وثمة علاقة تكاملية يشغل فيها العهد الطرف الأول، على حين يشغل العقد الطرف الثاني، وها هنا، إذاً، طرفان آخران تكشف عنهما القراءة التحليلية للسورة بعد كشفها عنهما حينما توقفت عند مدخل السورة وعتبتها الرئيسة ممثلة بتسميتها وعنوانها.

فالعهد أول العقد، والعقد آخر العهد. وكل عقد معنوي؛ عهد، وليس كل عهد عقد، أو بعبارة أخرى، العقد مرتبة تقوية العهد وتأكيده بتكراره وتكثيره أو بالقسم عليه أو بتفصيله وتقوية كل طرف من أطرافه ومكوناته وعناصره. فالعقد تمام العهد وخصوصه بعد عمومه وزيادته بعد كماله وعدم نقصه، ولا يكون ذلك العقد كذلك إلا باستذكار العهد وتعاهده بالذكر والاستذكار والحفظ...!

حسنا، فما مناسبة العقد للوفاء، بحيث تصير (العقود) في الآية المباركة في موضع المفعول لفعل الأمر (أوفوا) ؟

وفَى لنا فلانٌ أَي تَمَّ لنا قَوْلُه، وكذلك أَوْفَى الكيلَ أَي أَتمه، و وفَّى نذره وأَوْفاه أَي أَبْلَغه، وتَوافَينا في الميعاد ووافَيْتُه فيه وتوَفَّى المدَّة بلَغَها واسْتَكْمَلها... وكلُّ شيء بلَغ تمامَ الكمال فقد وَفَى وتمَّ[1]. والوافي؛ الذي بلغ التمام[2].

هكذا، إذاً، استعمل العرب مفردة (وفى)، وهكذا كانوا يستعملونها حينما نزلت كلمات الحق سبحانه على صدر الرسول الكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهي مثلها مثل سابقاتها مما توقفنا عنده من مفردات أو أدوات تحليلية في هذه السورة تكشف عن علاقة تكاملية بين طرفين؛ طرف الكمال ممثلا بأداء المُعاهَد ما عُهد إليه أداؤه، وطرف تمام الكمـــال

.....

(١) ظ: لسان العرب، مادة (وفى)، و مفردات ألفاظ القرآن؛ ص٨٧٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن؛ ص٨٧٨.

بذلك العهد أو العقد. ويقينا إن وفاءه بالعهد لازم، لكن تحقيق وفائه بالعقد التزام. وبما يعنيه العقد من تأكيد العهد وتقويته وتشديده، يصير الالتزام أتمّ وجوبا..!

نظرة متأنية قليلا للآية الأولى من سورة المائدة، ثم نُتمّ النظرة الأولى بثانية تؤكدها وتزيدها تفصيلا، ولكن للسورة جميعا هذه المرة، وابتداء من الشقّ الثاني من شقَّي الآية الأولى، نخلص من خلالها مقرونة بالنظرة الأولى إلى أن قوله تعالى؛ ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**...)) طرف أول يقابل ما تحدثنا عنه سابقا من عموم الطرف الأول وإجماله ممثلا بالأداء المقابل للوفاء، والعهود المقابلة للعقود. أما قوله سبحانه في الشق الثاني من الآية عينها؛ ((**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**))، فهو الطرف الثاني الممثل لحقيقة التخصيص والتأكيد والتقوية والتفصيل والتتميم... وكذلك تتوالى آيات السورة المباركة بيانا للشق الأول من شِقَّـيْ آيتها

الأولى، فالآيات تبيان لمحددات الوفاء وأخلاقياته وشرائط من يتصفون به من جهة، وتبيان للكيفية التي بموجبها صارت العهود الإلهية ممثلة بالأحكام والتكاليف السابقة التي تولّت السور السابقة في النزول لسورة المائدة بيانها، كيف استقوت واشتدت وانعقدت في القلوب والعقول، وكيف صارت بعد أكثر من عقدين من الزمان عقودا في خلال الزمان والمكان ومن خلال تكرار بيانها وتفصيل مجملها وتأكيد أهميتها...!

فما حصة آية التبليغ من كل ذلك، بناء على ما اتضح تحليليا من خلال ماسبق؟

لعلنا لا نعدم قناعة أن الآية المباركة في ضوء مقدماتنا المنهجية السابقة منضوية تحت ما سبق من تأسيس منهجي،وهذا يعني، مما يعني، تشكّل مصداقا منطقيا ومظهرا فلسفيا من مظاهر الشق الأول من شقّي الآية الأولى في السورة المباركة، فهي،إذا، تشتمل على عقد سبق تأكيده وتكراره وتفصيله في الزمان والمكان وبكيفيات وطرائق ومناسبات مختلفة(عقد الولاية، بدليل آية؛ "إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا..." وغيرها، وهي بعد ذلك تشتمل على خطاب للمؤمنين، وعلى رأسهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بلزوم الوفاء بذلك العقد، الوفاء الذي يتمم كمال ما تعاهد عليه المتعاهدان، وهما على التوالي؛

١ –ذاتان مفردتان (صاحب العهد، هو الله سبحانه، والمعهود إليه ذات الرسول).

٢ – ذات وفريق من الذوات (ذات الرسول وذوات المؤمنين).

٣ – فريقان (ذوات المؤمنين، وذوات أخرى منهم).

ترى، هل أسهم البحث بعد كل تلك المفاصل التحليلية في دفع ما يمكن دفعه في التمييز بين (العهد) و (العقد)، خاصة وأن كلمة (العقود) هذه لم ترد في القرآن الكريم إلا في الآية الأولى من سورة المائدة موئل البحث؟ وهل استطاع أن يدفع إرادة بعض المفسرين تخصيص (الوفاء بالعقود)[١] بما يتعاقده الناس بينهم، على حساب الإرادة القرآنية القاضية بالوفاء بعموم العقود، أية عقود، بما فيها ما يستقوي ويستحكم من عهد ما بين الله سبحانه وعباده...؟

لنترك الإجابة جانبا، ولنسارعْ صوب آية أخرى، لها صلة بآية التبليغ، لعلها تكفينا عناء تلك الإجابة هذه اللحظة..

قوله عزّ وجلّ؛ ((**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)) (المائدة؛ ٣).

.....

(١) ظ: في تفصيل تلك الآراء، الميزان؛ ج٥/ ص ١٦٧ وما بعدها.

لعل إجراء ما خلصنا إليه على هذه الآية، وقرنْ ما تميّز لنا من سمات (العقد) وما سيتميز من سمات (التمام) الذي اشتملت عليه الآية السابقة، سيكشف لنا عن جديد... ولـــكن،

لنتأنَّ كثيرا عند الموضع الذي شغله مقطع (إكمال الدين وإتمام النعمة) من الآية، ولنقرأ بعقل تحليلي توسط ذلك المقطع ضمن الآية حكمين فقهيين، أو جنبتين وطرفين قرآنيين متفقين موضوعيا، فكل منهما طرف، وهما في حال يتعاهد فيها أحدهم الآخر مضمونيا، ولكن بتجريدهما من الشريحة الضميمة واسطة العقد، وعقدة العهد، التي تتحدث عن إكمال الدين وإتمام النعمة، فإذا أعدناها حيث موضعها تم العقد بين الآيتين أسلوبيا وعقائديا، وكأن القرآن الكريم يريد أن يقول لنا؛ إن الإيمان بأحكام الله وتعاهدها بالحفظ والمزاولة عهد عهده الله إليكم، أما تأكيد ذلك الإيمان الذي تعاهدتموه بالمزاولة فلا يكون إلا بتتميه بتعاهد الولي والولاية بالحفظ والمزاولة والالتزام. وكأن الآية إذ تجري علاقة الإضافة النحوية بين (الدين) و(الميم؛ ضمير الذوات المخاطبين الجماعة العائدة على المؤمنين المخاطبين بالوفاء بالعقود) في المقطع (اليوم أكملت لكم دينَكم)، وتجريها مرة أخرى، ولكن بين (النعمة) و (الياء؛ ضمير الذات المتكلمة العائدة عليه سبحانه)، تلوّح ملتزمة أعراف التلميح دون التصريح،لحكمة ابتلائية، بأن الدين غير النعمة فالدين دين الناس ومستلزم حاجاتهم الخاصة، أما النعمة فعطاء المنعم وتفضل المحسن، فهي ليست مما تحيط بسماتها حاجاتكم المحدودة، كما لم تحط حاجات بني إسرائيل بطبيعة المائدة السماوية التي استنزلوها من حيث هي مفهوم عام، أما من حيث هي مصداق خاص فقد أبدعها سبحانه و لا قدرة لهم على مثلها تفضلا منه عليهم وابتلاء لهم ليشكروا أم يكونوا من الكافرين...!

والذي توجبه علينا منهجيتنا التي اعتمدنا في الصفحات السابقة من هذا البحث، هاهنا، هو إعادة استذكار طرفي كل آية من الآيات المفاتيح السابقة، ولكن بإجرائها اللحظة على (الكمال والتمام) من جهة، وعلى (الدين والنعمة) من جهة أخرى، ليتبين لنا بعدها أن الكمال أول التمام وأن التمام آخر الكمال، فكل تمام كمال وليس كل كمال تماما، فالتمام خصوص الكمال وعقيده وثباته وديمومته... ولنتذكر أن الباري سبحانه جعل الدين مفعولا لفعل الكمال، على حين جاءت النعمة مفعولا لفعل التمام، فالتمام مناسب النعمة والكمال

مناسب الدين، وهذا يعني أن ثمة ما به يتم الدين و لا تمام له بدونه ألا وهو النعمة الخاصة التي يمتد بوساطتها الدين وبوساطتها تعقد أطرافه... ولعلنا بدليل ما سبق نخلص خلوصا مقبولا حينما نقول إن الجَنَبة الفقهية للدين الذي تحدثت عنه الآية المباركة ممثلة بطرفيها الحافّيْن بمقطع إكمال الدين وإتمام النعمة، ماهو إلا استجابة الديّان سبحانه للحاجات البايولوجية والاجتماعية للذات الانسانية، أما الجنبة العقائدية الولائية للدين ممثلة بإتمام النعمة فهي استجابة للحاجات المعنوية القلبية والعقاية للذات الانسانية، ولقد كان لتلك الاستجابة أن تتحقق، بإعلان الولي، بعد إكمال متطلبات الاستجابة للحاجات البايلوجية والاجتماعية الشعائرية للذات الانسانية، بعد الفراغ من حجة الوداع.

ها قد حان الحين وآن الأوان كيما نقتطعْ ما يستوفي حاجتنا المعرفية مما أورده ابن منظور، وهو يستقصي استعمال مادة (بلغ) لدى العرب...

بَلغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً وصَلَ وانْتَهَى، والبَلاغُ ما يُتَبَلَّغُ به ويُتَوَصَّلُ إلى الشيء المطلوب، وبَلَغَ الغُلامُ احْتَلَمَ كأَنه بَلَغَ وقت الكتابِ عليه والتكليفِ وكذلك بَلَغَتِ الجاريةُ، وبلغ الصبيُّ والجارية إذا أَدْركا وهما بالِغانِ،وبَلَّغَ الفارِسُ إذا مَدَّ يدَه بِعِنانِ فرسه ليزيد في جَرْيِه، والمبالَغةُ أَن تَبْلُغَ في الأَمر جُهْدَك[1]... ويزيد صاحب مفردات ألفاظ القرآن فيقول؛ ((البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانا كان أو زمانا، أو أمرا من الأمور المقدّرة)) [2].

.....

(١) ظ: لسان العرب؛ مادة (بلغ).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن؛ ١٤٤.

وهاهنا، ممايزة واضحة بين أدنى الوصول إلى المقصد وأقصى الوصول، ويتبيّن الفارق بين الوصول الأدنى والوصول الأقصى. كذلك يتبين الفارق ما بين حال الصبيّ قبل إدراكه وحاله بعد احتلامه وإدراكه، ومثل التمايز السابق يتمايز حالان لعنان الفرس، الأول منهما قبل أن يمدّبه الفارس، والثاني بعد مدّه بغية زيادة سرعة الفرس... وفي الأمثلة والمصاديق السابقة جميعا ثمة طرفان، الأول منهما يسبق الزيادة والتقصّي والتمام وآخر يقترن به ويتبعه...

فلنتبيّن هذه الممايزة إذن في قوله تعالى؛ ((**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**))(**المائدة؛ ٦٧**).

مرة أخرى يتكشّف لنا أن الكلمة (بلّغ) التي تشكّل عقدة معرفية في الآية المباركة، بكل ما يحفّ بها من وقائع تاريخية قارّة ومستقرة في كتب الفريقين، وبكل ما تختزنه من حقائق ومعارف قرآنية، تشترط على الرسول الأكرم مزاولة فعل يتجاوز أثره المرتبة الأدنى للأثر إلى المرتبة الأقصى، ما يدلّ على أن المضمون المراد مزاولة فعله وتحقيق أثره ليس أمرا بسيطا أو ثانويا، وإنما هو أقصى ما يمكن أن تبلغه إرادة الدين والتديّن من مثابة إيمانية، بعد اكتمال مثابة النبوة، ألا وهو مثابة الولاية. وأجواء الآية وإيقاعاتها ومناخاتها الملوّحة بالوعيد والعهد للمناط به أمر التبليغ وهو الرسول الأكرم بضمان العصمة إن تحقق التبليغ، ما ينبيء عن أجواء مشحونة باحتمالات خيانة الأمانات ونكث العهود والغدر بالمتعاقدين.... هذه الأجواء وغيرها، مما لا تسمح مقيدات البحث بالتوقف عندها، لتثبت بما يدفع الكثير من الشكوك مرة أخرى، أن المراد تبليغه غير ما يدعيه البعض وأبعد ما يكون من مدعياتهم...

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

.....

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي الشافعي، مراجعة وتحقيق سعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، (د.ط.تا).
- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، عبدالكريم بن إبراهيم الجيلي، تصحيح وتعليق فاتن محمد خليل، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١٤٢٠،١هـ- ٢٠٠٠م.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد عبدالله الزركشي، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ- ١٩٩٥م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، (د.ط.تا).
- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي،دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
-

- مشاهد روحية وفلسفية– الجزء الأول: التشيّع اثنا عشري، هنري كوربان، ترجمة وتحقيق نواف الموسوي، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- المعنى القرآني بين التفسير والتأويل– دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني، عباس أمير، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، منشورات ذوي القربى، قم، ١٣٨٢هـ.
- نحو النص: نقد النظرية وبناء أخرى، د. عمر محمد أبو خرمة، إربد، الأردن، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.